بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كلمة البديع فى اللغة تعنى الجديد المبتكر، يقال : أبدعت كذا – يعنى اخترعته وعليه جاء قول الحق: (بديع السموات والأرض . .) يعنى مبدعها على غير مثال سابق. ومنه الإبداع فى الفنون والآداب وكل فن أو أدب مبدع معناه أن صاحبه أتى به على وجه خال من التقليد والمحاكاة. فهو مبدع بكسر الدال. وعمله مبدع بفتحها.

ومنه (البدعة) فى الشرع والعُرف. لأن معناها أنها شئ جديد لم يقرها الشرع، ولم يعرفها العرف. ومنه: بدائع الدهور. يعنى الأمور المستحدثة التى لم يسبق لها نظير.

أما البديع فى عرف البلاغيين فقد استقر منذ وضع السكاكى كتابه المفتاح بأنه:

(علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة).

وعلى هذا فالمناسبة بين المعنى اللغوى لكلمة (البديع) والمعنى الاصطلاحى ظاهرة.

لأن الشئ المبدع المبتكر لا يخلو من الحسن والروعة والانبهار والطرافة والبهاء.

هذا . وقد جعل السكاكى منزلة البديع بعد منزلتى علمى المعانى والبيان واقتدى به المتأخرون من علماء البلاغة. وجعله – كذلك – خارجاً عن دائرة

البلاغة الأصيلة لأن وظيفته هى التحسين وهو أمر زائد عن أصل الدلالة وعلى ذلك أيضاً مضى المتأخرون وقللوا من شأن البديع ويسميه بعضهم علم البنات. يعنى أنه مظهر ترف فى الأسلوب، وقد تتحقق بلاغة الكلام دونما حاجة إلى هذا البديع الذى قصارى جهده الوشى والزخرفة. فهو غرضى طارئ .. أما سابقاه وهما المعانى والبيان فهما ذاتيان متأصلان فى فن البلاغة.

وقد حملهم على هذا - فوق صنع السكاكى - نماذج للشعراء والمتأدبين طرقوا فيها بعض فنون البديع فجنحوا به عن جادة الحق وأساءوا إلى البديع بقدر ما أحسن هو إليهم.

كما أن الإسراف فى تعدد الفنون البديعية كان له دور بعيد المدى فى النظرة إلى هذا الفن فجاء - عندهم - حلية وعرضاً وذيلاً وطرفاً وأنزلوه فى غير منزلته.

وقد كان (البديع) قبل وضع السكاكى كتابه (المفتاح) اسما لكل فنون البلاغة. فهذا إمام البلاغة العربية الإمام عبد القاهر الجرجانى لا يرى البديع إلا وصفاً للبلاغة بمعناها العام فتراه يقول:

(وأما التطبيق والاستعارة وسائر أنواع البديع فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعانى خاصة) [1] وهذا مما يحمد للإمام عبد القاهر.

والحق أن مدرسة السكاكى، وإن كانت ذات يد طولى على البلاغة، فإنها لم تضر بالبديع وحده وإن اشتهر ذلك وذاع، ولكنها أضرت بالبيان كذلك وإن تجوهل هذا وتنوسى.

فإننا إذا نظرنا إلى التعريف الأثير للبلاغة نجده قد قصر البلاغة على علم المعانى دون نظيريه البيان والبديع. فقد عرّفوا البلاغة بقولهم:

---

(١) أسرار البلاغة ص١٤ - شرح رشيد رضا الطبعة السادسة.

(هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته) ثم عرفوا علم المعانى بأنه : (علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال) فإذا كانت المطابقة هى البلاغة . وذلك محل اتفاق عندهم – فإن الموفى بحق تلك المطابقة هو علم المعانى كما يفهم ذلك جلياً من التعريف .

فما الحاجة إذن إلى البيان والمعانى . إنهما بمقتضى تعريف البلاغة وتعريف علم المعانى خارجان عن دائرة البلاغة من أوسع طريق وقد عرفوا علم البيان فقالوا : (هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه) ويزيد بعضهم (بعد رعاية المطابقة) . فالمطابقة التى هى البلاغة حاصلة بمراعاة قواعد المعانى فلخلو الذهن مقتضى يغاير مقتضى التردد، وللإنكار مقتضى يختلف عن مقتضى الخلو والتردد .

وتطبيق الكلام فى المواضع الثلاثة مختلف تماماً من موضع إلى آخر وهكذا أبواب المعانى الثمانية التى سبق لك درسها .

وقد راجعت كثيراً من جهابذة علم البلاغة من الرعيل الأول حول هذه القضية فدافعوا عن علم البيان بأن المطابقة قد تقتضى التشبيه أو الاستعارة أو الكناية . فعلم البيان داخل فى البلاغة (الاصطلاحية) بهذا الاعتبار عندهم .

ولكن تعريف علم البيان هو الفيصل فى الرد على مثل هذه المحاولات . فلو كانت المطابقة حاصلة بالبيان فلماذا لم يبينوا بوضوح الحال المقتضى للتشبيه والحال المقتضى للاستعارة وهكذا . ونحن نعرف أن التشبيه والمجاز والكناية التى هى مباحث علم البيان متنوعة كل فى بابه إلى أنواع كثيرة فالتشبيه أنواع وأنواع، والمجاز أضرب وأضرب، والكناية أقسام وأقسام .

فكان ينبغى أن يذكر البلاغيون – تفصيلاً – المقام الذى يناسب كلَ صورة من تلك الصور المتعددة .

وكون تعريف البلاغة على هذه الطريقة التقليدية مخرجاً للبيان كما أخرج البديع من دائرة البلاغة فإن الواقع يخالف ذلك فكل من البيان بصفة خاصة،

والبديع بوجه عام متأصلان فى فن البلاغة وإن أعترف بذلك للبيان دون البديع. فالعيب كامن فى تعريف علم البلاغة والإنصاف يقتضى النظر فيه حتى يكون شاملاً جامعاً لموضوعات العلم. تلك أمور أثبتها هنا لعلها تأخذ حقها من البحث والدرس.

وقد قسموا علم البديع إلى قسمين أحدهما المحسنات المعنوية كالطباق، وثانيهما المحسنات اللفظية كالجناس وعرفوا المعنوى بأنه ما كان التحسين فيه راجعاً إلى المعنى أولاً وبالذات ثم إلى اللفظ. ثانياً وبالعرض.

وعرفوا اللفظى عكس ذلك وهو ما كان التحسين فيه عائداً إلى اللفظ أولاً وبالذات. ثم إلى المعنى ثانياً وبالعرض وعلى هذا التقسيم استقر وضع البديع عندهم.

وفيما يلى سندرس بعض فنون البديع بنوعيه اللفظى والمعنوى دراسة تحليلية نقدية إذا اقتضى المقام ذلك. محاولين التعرف على الموضوعات التى سندرسها من كل جانب ملحوظ.

كما سندرس ما سموه بـ (السرقات الشعرية) وهى قضية من قضايا النقد القديم جديرة بالدرس والنظر. والله نسأل أن يوفقنا للصواب ويقينا مواطن الزلل وعليه قصد السبل،،

د. عبد العظيم المطعنى

القاهرة - الظاهر

المحرم : ١٣٩٦ هـ

يناير : ١٩٧٦ م